من أعلام الفكر في الجزائر
أبو يعقوب يوسف الوارجلاني

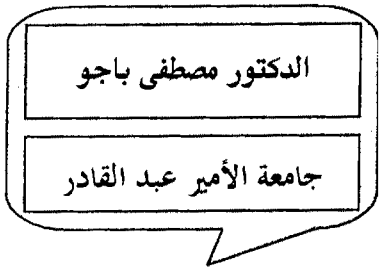

ملخص

يتناول هذا البحث واحدا من أعلام الفكر الجزائري في القرن السادس الهجري، وهو أبو يعقوب يوسف الوارجلاني، وإسهامه بكتابات متعددة في مختلف مجالات المعرفة، كالتفسير والحديث والتاريخ والفلسفة والكلام وعلم الأصول. وكان له موقفه الواضح من قضايا الفكر الإسلامي والمشكلات التي أفرزتها الحياة العلمية للمسلمين في تلك الفترة. وتميز ببعد النظر وسعة الأفق نظرا لتجاربه الخاصة في رحلاته ومغامراته، إذ وصل إلى قريب من خط الاستواء، وسجل ملاحظاته على تلك المجتمعات، ومعالم البيئة الجغرافية والمناخية وأثرها على تفكير الإنسان.

تزخر الجزائر برجال أفذاذ شرفوها عبر تاريخها الحافل، ومنذ فتحت صدرها لرسالة الإسلام، نبغ فيها أعلام في شتى مجالات الحياة الفكرية والسياسية والعمرانية. وأسهموا بجهود مباركة في مسيرة الحضارة الإسلامية. ولكن حظ كثير من هؤلاء الأعلام كان الإهمالَ والنسيان. فنشأت أجيال جهلت تاريخها، وتنكرت لجهود أسلافها.

وكم بالجزائر من معجزات وإن جحدوها فلم تُكتبِ

وكأن قَدَر هذه الأرض أن تغرب أمجادها بسبب موقعها في مغرب العالم الإسلامي، فلم تسطع شمسها على أهلها ولا على أهل المشرق إلا لِمامًا.

ومن بين الأعلام الذين أنبتتهم هذه الأرض المعطاء في القرن السادس الهجري، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني. (عاش بين 500–570هـ).

هذا الرجل الذي أسهم بنشاط علمي بارز، وأنتج مؤلفات عديدة شملت مختلف مجالات الفكر الإسلامي، في علوم القرآن والسنة والأصول والكلام والفقه والفلسفة والمنطق والجغرافية والحساب والتاريخ. وبالرغم من هذا الثراء والتنوع فقد ظل الرجل مغمورا وتراثه مطمورا قرابة عشرة قرون. ومن واجب الوفاء والعرفان بالجميل أن يتولّى جيل الأبناء مهمة التعريف بجهود الآباء، لغاية عملية هي الاستفادة والاقتداء، ضمانا للتواصل الحضاري بين الأجيال.

وقد صدرت عن الوارجلاني مقتطفات موجزة في بعض الكتب المتعلقة بالتراجم والتاريخ. بدءًا بالمصادر القديمة الخاصة بتاريخ الجزائر، ثم المؤلفات الحديثة العربية منها والأجنبية. وأخيرا بدأ الاهتمام بالوارجلاني في مجال الدراسات الأكاديمية. فقام الباحث صالح بوسعيد بدراسة وتحقيق كتابه "الدليل والبرهان" في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، بالكلية الزيتونية بتونس. ثم تناولناه بدراسة آرائه الأصولية من خلال كتابه "العدل والإنصاف" مقارنة بآراء أبي حامد الغزالي في رسالة ماجستير نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة. كما حقق الباحث مهني التواجيني، كتابا له صلة بتراث الوارجلاني، وهو "شرح مختصر العدل والإنصاف" لأبي العباس أحمد الشماخي، في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة في الكلية الزيتونية بتونس أيضا[1].

النسبة والنشأة: ينسب أبو يعقوب إلى "وارَجلان" أو ورقلة[2] المعروفة حاليا في الصحراء الجزائرية. وهي مدينة هامة تقع قريبا من حقول حاسي مسعود البترولية. وتعود

---

1) – توجد هذه الدراسات كلها بحوزتنا.

2) – حول ضبط اسم وارجلان، والاختلافات فيه ينظر: عبد الرحمن الجيلالي "أبويعقوب الوارجلاني، وكتابه الدليل والبرهان". مجلة الأصالة، عدد41. (محرم1397هـ/ جانفي1977م) صفحات162فما بعد.

نشأتها إلى ما قبل الإسلام، و كانت آهلة بالسكان منذ القديم، ثم ازدهرت في العصر الإسلامي. وأصبحت نقطة عبور لقوافل التجارة إلى بلاد السودان لجلب الذهب والرقيق نحو الشمال والأندلس[1]. في هذه المدينة النائية ولد أبو يعقوب سنة 500هـ. وترعرع كسائر لِدَاته، وانخرط في سلك التعليم الذي كانت تشرف عليه حلقة العزابة[2]. وقد شهدت وارجلان أوج ازدهارها العلمي في القرن السادس الهجري، إذ أنجبت أباعمار عبدالكافي التناوتي السدراتي. (ت قبل570هـ). وأبا عثمان عمرو بن خليفة السوفي. وأبايعقوب يوسف بن خلفون المزاتي. وتبغورين بن عيسى الملشوطي[3]. وغير هؤلاء ممن تركوا آثارا علمية هامة لا تزال محفوظة إلى اليوم. بعضها رأى نور المطابع، وكثير منها لا يزال حبيس خزائن المخطوطات.

في هذا المَربى العلمي الزاهر نشأ أبو يعقوب، وعلى هؤلاء العلماء تتلمذ واجتهد في التحصيل. حتى استوعب معارف بيئته في وارجلان. ولكنه كان شغوفا إلى الاستزادة من العلم. فتاقت نفسه وهو في أقصى الصحراء للتوجه إلى مراكز العلم الشهيرة. وكانت له رحلات هامة أثّرت معارفه. وأثّرت في فكره، وظهرة بارزة في آثاره.

فترة الرحلات:

كانت الأندلس في القرن السادس في أوج مجدها الحضاري. إذ أقام المسلمون بها جامعات عديدة ظلت منارة إشعاع فكري ومنبع تنوير علمي لعدة قرون.

---

1) – ياقوت الحموي، معجم البلدان. ج5، ص371. – الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983. ج2، ص136.

2) – حلقة العزابة هيئة دينية، لها نظام تربوي اجتماعي يُعنى بشؤون التعليم وقضايا المجتمع، أنشأه أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، سنة 409هـ. ببلاد أريغ (تقرت حاليا). وعم تطبيقه معظم مواطن الإباضية ببلاد المغرب. ولا زال موجودا في وادي ميزاب جنوب الجزائر. وكتبت حوله دراسات عديدة. ينظر منها: د. محمد ناصر، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي. نشر جمعية التراث. القرارة. 1989.

3) – حول تراجم هؤلاء الأعلام ينظر معجم أعلام الإباضية.. وكتابنا: أبويعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي. طبع وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان. 1995. ص 62 فما بعد.

قصد أبو يعقوب بلاد الأندلس، وهو في العقد الثالث من عمره، واستقر بمدينة قرطبة، حيث جامعها الأعظم. وأقام هنالك سنين عددا، ملازما حلقات العلم والعلماء. حتى نبغ في فنون عديدة. ولفت انتباه أترابه وأشياخه بحرصه على التحصيل وذكائه وقدرته على الاستيعاب. وعُرف بينهم بالجاحظ تشبيها له به في الجد وسعة الاطلاع[1]. وأتقن أبو يعقوب العلوم النقلية والعقلية، وبرع فيها. "إذ كان له في كل جوّ متنفس، ومن كل نار مقتبس" على حد تعبير الدرجيني[2]. ثم رجع إلى موطنه مليء الوطاب بما استفاد من معارف وعلوم. وعقد العزم على السفر من جديد. فتوجه إلى بلاد السودان في رحلة تجارية استطلاعية. وتوغل في مجاهل إفريقيا. واستفاد من هذه الرحلة بعوائد مادية وفيرة . كما سجل ملاحظاته العلمية على الظواهر المناخية والطبيعية في تلك المناطق. وذكر أنه وصل إلى قريب من خط الاستواء حيث يستوي الليل والنهار على مدار العام[3]. ولم يهمل الجانب الاجتماعي أيضا، إذ دوّن ملاحظاته على البيئة الاجتماعية لسكان تلك البلاد. ونمط تفكيرهم وتصورهم لحقائق الكون والحياة[4]. وذكر قصصا غريبة في هذا المجال[5]. وختم مشوار أسفاره برحلة إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج. وقد حفظ لنا معالم هذه الرحلة مفصلة في قصيدة مطولة بلغت ستين وثلاثمائة بيت. عُرفت بـ"القصيدة الحجازية". ولا تزال نسخ عديدة منها مخطوطة في مكتبات وادي ميزاب[6].

---

1) – أبو القاسم البرادي، البحث الصادق والاستكشاف. مخطوط. ج1. ورقة 98ظ. – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج1، ص317.

2) – أحمد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاّي. مطبعة البعث. قسنطينة. 1974. ج2، ص491.

3) – أبويعقوب الوارجلاني، الدليل والبرهان. طبعة حجرية. مطبعة الأزهار البارونية. مصر. ج3، ص216.

4) – المصدر السابق، صفحات 209 فما بعد.

5) – المصدر نفسه.

6) – ينظر: الوارجلاني، القصيدة الحجازية. مخطوط بحوزتنا. وحول محتوى القصيدة وخصائصها الفنية ينظر: بحثنا: أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي. صفحات 109 فما بعد.

ولهذه الرحلة أيضا فوائدها الجمة في إثراء فكر أبي يعقوب بما استقاه من مشاهداته ولقاءاته مع العلماء ومناظراته معهم في قضايا علمية. سجل بعضها في مؤلفاته. ومن ذلك مناظرة جرت بينه وبين أبي عمار عبد الكافي في مكة حول ظاهرة النهب والغصب التي يمارسها أعراب الحجاز على قوافل الحجاج، وحكم ما بأيديهم من الأموال. هل يجوز التعامل معهم؟ أم يُقاطعون كما هو الشأن مع أعراب بني هلال بالمغرب؟.

فكان جواب أبي عمار أن هذه جزيرتهم، الأقعد فيما بين أيديهم والأغلب عليه هو الحلال. فلا حجر في التعامل معهم. أما في بلاد المغرب فإن الأمر مختلف، إذ الأعراب فيها يعتبرون غارّة، وكل ما بأيدي الغارة ريبة ولا يحل الدنوّ منه[1]. فقضية الزحف الهلالي. وما استتبعها من اجتهاد الفقهاء في مجال المعاملات المالية كانت من القضايا التي أثيرت في رحلة الوارجلاني إلى الحج.

مرحلة الاستقرار والإنتاج: بعد أن طاف الوارجلاني أرجاء عديدة من العالم الإسلامي عبر رحلاته المتنوعة، العلمية والدينية والاستطلاعية والتجارية، حط عصا الترحال ببلده، واستقر ليتفرغ لرسالته المقدسة في التدريس والتأليف. وأخذ يقدم عصارة علمه وأفكاره. وخلاصة تجاربه وأسفاره لطلبته في دروسه، وللأجيال في مؤلفاته. وله في ذلك عزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل. وقد وصف الدرجيني عصاميته بقوله: "وذكروا عنه أنه أقام سبعة أعوام ملازما داره لا ينصرف. فكان متى زاره أحد من الزوار وجده إما ينسخ، وإما يدرّس، وإما يقابل وإما يبري الأقلام، وإما يطبخ الحبر، وإما يسفر كتابا. لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه، إلا إن قام لأداء فريضة"[2].

---

1) – الدرجيني، طبقات المشايخ. ج2، ص490.
2) – الدرجيني، طبقات المشايخ. ج2، ص490.

ولم يكن يستصعب نسخ الكتب مهما بلغ حجمها، إذ أوتي قدرة عجيبة على ذلك. وقد وقف له بعض الثقات -كما ذكر الدرجيني- ببلاد الجريد وسوف وأربغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتابه "العدل والإنصاف". والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء. وكلها بخط يده. وذكر الدرجيني أنه رأى بعينه منها ثلاثا[1].

وتلك دلالة أخرى على صبر الوارجلاني وجَلَده في سبيل نشر العلم، إذ لم يكن مؤلفا فحسب، بل كان يقوم بدور فريق من النساخ، أو دور المطبعة في عصرنا الحاضر.

ولا غرو بعد هذا أن نجد إنتاجه الفكري غزيرا ومتنوعا، تناول مختلف فروع المعرفة آنذاك. فكان كما قال الدرجيني: "له يد في علم القرآن وعلم اللسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السير والآثار. وعلم الفرائض والمواريث، ومعرفة رجال الأحاديث. ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين. بل حصل مع ملازمة السُنة قطعة من علم الحكماء المنجّمين"[2].

آثار الوارجلاني:

إن عصامية أبي يعقوب ومكوثه ببيته متفرغا للتأليف والتدريس، أنتجت لنا كمًّا هائلا من الآثار، ولكننا نقول والأسى ملء الحنايا، إن الفتن المتتالية التي عرفتها وارجلان عبر تاريخها الطويل[3]. وما منيت به المكتبات الإباضية من نهب وتحريق وإتلاف، فضلا عن العوامل الطبيعية والمناخية لوارجلان. كل ذلك كان من أسباب فقدان تراث الوارجلاني الذي لم ينج منه إلا النزر اليسير. وأغلب ما بقي منه هو ما كان خارج وارجلان. وخصوصا في المكتبات الخاصة بوادي ميزاب. حيث بقيت مصونة إلى اليوم.

---

1) – الدرجيني، طبقات المشايخ. ج2، ص490.
2) – الدرجيني، طبقات المشايخ. ج2، ص491.
3) – ينظر: بحثنا: أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي. صفحات29 فما بعد.

وسنحاول إلقاء بعض الضوء على هذه الآثار للتعرف على ملامح فكر أبي يعقوب، مبرزين أساسًا جانب التفسير منه.

1- في التفسير:

ترك الوارجلاني تفسيرا للقرآن الكريم وصفه أبو القاسم البرّادي بأنه: "كتاب عجيب رأيت منه في بلاد أريغ [تقرت، حاليا] سِفرا كبيرا، لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه، ولا أكبر منه، وحرزت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر. فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران. وحرزت أنه فسّر القرآن في ثمانية أسفار مثله. فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور في لغة أو إعرات أو حكم مبيّن أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو في جميع العلوم منه"[1].

وقد سلك الوارجلاني في تفسيره منهج الجمع بين المنقول والمعقول، وهو مسلك محمود في مناهج المفسرين. "فأول ما يذكر إعراب الآية ويستقصيه، ثم يقول اللغة فيستقصي تصاريف الفعل من الكلمة، ثم يذكر الأحاديث المتعلقة بالآية، فيناقشها، فجمع فيه علوما جمّة"[2].

ولأهمية هذا التفسير عزّ على البرّادي أن يبقى هذا الكنز مهملا من قِبل أهله، فتذاكر أمره مع بعض نجباء الطلبة فقال أحدهم: "لو وجدت هذا التأليف كاملا لاسترخصته بخمسين دينارا"[3]. ويذكر الشيخ أبو إسحاق اطفيش أن هذا التفسير يقع في سبعين جزءا، وأنه تلاشى في الفتن الداخلية التي مُني بها المسلمون حينا من الدهر[4]. ولم يقطع الشيخ أبو اليقظان إبراهيم

---

1) – أبو القاسم البرّادي، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات. ص220.
2) – البرادي، الجواهر المنتقاة. ص221.
3) – المصدر نفسه.
4) – أبو إسحاق اطفيّش، الدعاية إلى سبيل المؤمنين. ص27.

والأستاذ عبد الرحمن الجيلالي حبل الرجاء في الحصول عليه. فذكرا أنه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء واحد في إحدى خزائن روما عاصمة إيطاليا[1].

ولكن برغم جهود الباحثين، فلم يعثر لهذا الكتاب على أثر. ولئن ظل في عداد المفقود، فإن كتاب الوارجلاني "الدليل والبرهان" حفظ لنا نماذج هامة ورائعة لتفسير أبي يعقوب.

ونذكر من هذه الآيات تمثيلا: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾البقرة: 30.[2].

- تفسير آية النسخ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾الرعد: 39. [3].

- تفسير آية: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾الكهف: 74. وقدم فرقا دقيقا بين الأمر النُكر والأمر المنكر. [4].

- تفسير آية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾الكهف: 60. وذكر معلومات جغرافية حول العالم الإسلامي، مما يدل على استفادته من علم الجغرافيا في مجال التفسير[5].

- تفسير آيات سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

---

1) – أبو اليقظان إبراهيم، الإمام الوارجلاني. مخ. ص14. – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام. ج1، ص318.
2) – أبويعقوب الوارجلاني، الدليل والبرهان. ج3، صفحات 109 فما بعد.طبعة حجرية.
3) – المصدر السابق. ج3. صفحات 100. طبعة حجرية.
4) – المصدر السابق. ج3. صفحات 191/190. طبعة حجرية.
5) – المصدر السابق. ج3. صفحات 195/194. طبعة حجرية.

أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1] ...إلى قول الحق تعالى مبشرا رسله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)﴾ [2]

وبيّن فيها منهج القرآن في إقامة الحجج، والجدل الذي كان بين الأنبياء وأممهم، وطريقة الأنبياء في الدعوة إلى الله بالحكمة والحجة، وموقف المستكبرين أزاء تلك الدعوة استهزاء وسخرية، ثم تهديدا ووعيدا، عند إفلاس الحجة وانعدام الدليل. وفي ذلك الحوار الساخن يجلّي لنا الوارجلاني، جدلية الصراع بين قوة المنطق ومنطق القوة[3].

- كما فصّل اجتهادات عمر بن الخطاب ﷺ في تفسير آية الغنائم، وبيّن سهم قرابة رسول الله ﷺ منها[4].

- وأوضح احتجاج القرآن بالعقليات، وأن الميزان العقلي هو المقصود في سورة الرحمن في قوله "ووضع الميزان"[5].

ولعل من المفيد أن نقدم فقرة من حديثه عن الحكمة من تنوع أساليب القرآن، يقول فيها: "وأن ما بُني عليه القرآن من اختلاف السور وتقطيعها والاختصار في بعضها والإكثار في بعض. لما يشمل العامة ويسوسها ويصلح لها... فمن قرأ من القرآن جزءا واحدا وجد فيه جميع أخبار الأمم والأنبياء والرسل. ومن قرأه أجمع أصاب الكل. فلهذا قال الكفار في القرآن، ولم يعرفوا له وجه الحكمة. قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ الفرقان: 32. أي تفسيره... فمن لم يستطع لحفظه أجمع

---

1) - سورة إبراهيم، آية 9.
2) - سورة إبراهيم، آية 13.
3) - المصدر السابق. ج3. صفحات 31-34. طبعة عمانية.
4) - المصدر السابق. ج3. صفحات 293 فما بعد. عمانية.
5) - المصدر السابق. ج3. ص403. عمانية.

اجتزأ ببعضه. فتكون القصص عند بعضهم كاملة، وعند بعضهم قاصرة، فاتبع الكل بالكل. وكذلك أخبار الله عز وجل عن أهل القيامة وزلازلها، والأخبار عن الجنة والنار.

وبالقرآن قصص طوال ومختصرات وإشارات وتلويحات تتردد بين لحن الخطاب ومعناه، وتتوزع بين لفظه ومبناه. ولهذا فاقت العربية جميع الكلام، والعرب جميع الأمم. وأفردها الله بالعقل والفهم والعلم والحكم"[1].

2- في الحديث ورجاله:

تناول أبو يعقوب مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي، وهو المعتمد الأساسي للحديث عند الإباضية. فأعاد ترتيبه وفق أبواب الفقه، وضم إليه آثارا احتج بها الربيع في بعض القضايا الخلافية. وروايات أخرى عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب عن أبي غانم بشر بن غانم الخراساني. إضافة إلى مراسيل الإمام جابر بن زيد الأزدي إمام الإباضية في الفقه والحديث[2].

ومسند الربيع يقع في شكله المرتب في أربعة أجزاء. يضمها مجلد واحد. أصبح يعرف بـ "ترتيب المسند" أو الجامع الصحيح للربيع بن حبيب، لأنه تحول إلى الترتيب الذي تواضعت عليه الجوامع الحديثية من الاعتماد على الأبواب الفقهية، خلافا للمسانيد التي تعتمد الترتيب بناء على رواة الحديث. وقد شرح الكتاب الشيخ أبو ستة محمد بن عمر الجربي. كما شرحه الشيخ أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي. (ت1332هـ/1914م) [3].

---

1) – المصدر السابق. ج3. ص210. عمانية.

2) – أفلح بن عبد الوهاب. ثالث الأئمة الرستميين.– ينظر: معجم أعلام الإباضية.
أبو غانم بشر بن غانم الخراساني. صاحب المدونة الكبرى في الفقه الإباضي. ينظر: معجم أعلام الإباضية.
جابر بن زيد، تابعي جليل، إمام المذهب الإباضي. ينظر: معجم أعلام الإباضية.

3) – شرح أبي ستة لمسند الربيع بن حبيب، طبع في زنجبار. ثم في عمان في ثمانية أجزاء. ثم حققه وطبعه الأستاذ إبراهيم طلاي في خمسة أجزاء.
أما شرح السالمي له فاقتصر على الجزأين الأولين منه. وهما أصل المسند قبل ترتيب وإضافة الوارجلاني.

ومن أعمال الوارجلاني وضعه رسالة في التعريف برجال المسند. كانت في عداد المفقودات. ثم وجد الباحثون في جمعية التراث في سنة 1992 قسما منها في إحدى مكتبات وادي ميزاب.

3- في أصول الفقه:

ألّف أبو يعقوب في هذا العلم كتابا بعنوان "العدل والإنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف" يقع في ثلاثة أجزاء[1]. وقد حظي هذا الكتاب بعناية خاصة من قِبل علماء الإباضية، فتناولوه بالشرح والاختصار والنظم. وهو يمثل آراء الإباضية في علم الأصول. وهي تتفق مع مدرسة المتكلمين بصفة عامة في مناهج الاستدلال.

ومن الأعمال التي تتابعت على كتاب العدل والإنصاف، نذكر:

أ- البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق معاني كتاب العدل والإنصاف. لأبي القاسم البرّادي، مخطوط في مجلدين، لم يتم فيه شرح العدل كاملا.

ب- مختصر العدل والإنصاف. لأبي العباس أحمد بن سعيد الشمّاخي. مطبوع.

ج- شرح مختصر العدل والإنصاف، للشماخي أيضا. مخطوط. وقد حققه الباحث مهني التواجيني في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة بتونس.

د- حاشية على مختصر العدل والإنصاف. لأبي عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة. مخطوط.

هـ- رفع التراخي في مختصر الشماخي، لعمر بن رمضان التلاتي الجربي. مخطوط.

و- شرح شرح مختصر العدل والإنصاف، لمحمد بن يوسف اطفيش. صاحب شرح النيل. مخطوط في ستة أجزاء ضخمة. لو طبعت لبلغت اثني عشر مجلدا.

---

1) – كان هذا الكتاب موضوع رسالتنا للماجستير في دراسة الفكر الأصولي للوارجلاني، مقارنة بأبي حامد الغزالي من خلال كتابه المستصفى من علم الأصول.

ز- موارد الألطاف بنظم مختصر العدل والإنصاف. لأبي مالك عامر بن خميس المالكي العماني. مطبوع[1].

4- في الفقه:

ذكر الشماخي أن للوارجلاني كتابا في الفقه، ولم يصرح بعنوانه ولا بحجمه. وله أيضا فتاوى وأجوبة عديدة. قال عنها الشماخي: "ولا أحصي ما رأيت له من الأجوبة لكثرتها"[2]. ولو جمعت هذه الفتاوى لألفت كتابا معتبرا.

5- في أصول الدين وعلم الكلام:

اشتهر أبو يعقوب بكتابه الكلامي: "الدليل والبرهان"، ويقع في ثلاثة أجزاء[3]. والكتاب موضوعه في أصول الدين أساسًا. ولكنه جامع لأشتات علوم كثيرة. فهو يبحث في الإلهيات والطبيعيات والفقهيات والمنطق والرياضيات، وآراء الفرق الإسلامية وتاريخ نشأتها، والأحزاب السياسية التي أثرت في مجرى الحياة الفكرية للعالم الإسلامي حتى القرن السادس الهجري. ويمتاز الكتاب بمنهجه الجدلي المحكم. بل يمكن اعتباره دائرة معارف إسلامية مصغرة لعصر الوارجلاني[4]. كما ذكر الوارجلاني كتابا له بعنوان "الاقتصاد في الاعتقاد" أورد ذلك عرَضا خلال كتابه "الدليل والبرهان"[5]. ولم نعثر له على أثر، ولم تسعفنا المعلومات المتوفرة بشيء آخر عن هذا الكتاب.

---

1) – حول محتوى هذه الكتب ومناهجها، ينظر: رسالتنا عن الوارجلاني. صفحات 155–168.
2) – أبو العباس أحمد الشماخي، سير المشايخ، طبعة حجرية. ص443.
3) – قام بدراسة الكتاب وتحقيقه الباحث صالح بوسعيد، في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة. بالكلية الزيتونية، بتونس.
4) – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام. ج1، ص318.
5) – الوارجلاني، الدليل والبرهان. ج3، ص184. طبعة حجرية.

6- في الفلسفة:

للوارجلاني كتاب بعنوان: "مرج البحرين" في علم المنطق والحساب والهندسة, وتلك علوم كانت إلى ذلك الحين من موضوعات الفسلفة.

وقد ألحق هذا الكتاب بالجزء الثاني من "الدليل والبرهان". كما تناوله الشماخي بالشرح. وضاع هذا الجهد العلمي. ثم تولى الشيخ عبد العزيز الثميني شرحه ثانية في كتاب سماه "تعاظم الموجين شرح مرج البحرين" ولا يزال مخطوطا بخط المؤلف. وهو شرح غير تام.

7- في التاريخ والسير:

أ- يُنسب لأبي يعقوب كتاب في التاريخ يُدعى "فتوح المغرب". ويذكر الشيخ إبراهيم أبو اليقظان أن المؤرخ التونسي حسن حُسني عبد الوهاب رآه في تركة المستشرق "مونتيسكيو"[كذا]. وأنه موجود في بعض خزائن ألمانيا[1]. ولكن لم تتأكد هذه المعلومة حتى الآن. ويسمي الشيخ عبد الرحمن بكلّي وعادل نويهض هذا الكتاب "كتاب المُغرب في تاريخ المغرب"[2]. بينما ذكره المستشرق جوزيف شاخت بعنوان "التاريخ الكبير لوارجلان وسدراتة ووادي ريغ"[3].

ب- كما يذكر أبو عمار عبد الكافي (القرن6هـ) أن الوارجلاني شرح سير محبوب بن الرحيل العماني[4]. وهو كتاب أرسله إلى أهل المغرب من أصحابه. ولقي عناية خاصة منهم. ولكن شرح الوارجلاني له لا يزال مفقودا.

---

1) – أبو اليقظان إبراهيم، الإمام الوارجلاني. مخطوط. ص13.
2) – الدرجيني، طبقات المشايخ، مقدمة عبد الرحمن بكلي. ج1، ص:ي. – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص431.
3) – J. SCHACHT, Bibliotheques er Manuscrites Abadites, Revue Africaine(Tome100) Alger 1956. p397.
4) – أبو عمار عبد الكافي، سير أبي عمار، مخطوط. ص2.

8- في الشعر:

من نتاج الوارجلاني ديوان شعر ذكره الدرجيني الذي رآه وقرأه. وكان يتسلّى به أبوه إذا ضاقت به الحال[1]. ويؤكد الشماخي أن للوارجلاني أشعارا[2]. ولكنها ضاعت. ولم تحفظ لنا الأيام إلا قصيدتين عُرفتا بالبائية والحجازية.

أما القصيدة البائية فكتبها في رثاء شيخه وصاحب الفضل عليه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل، إذ ترك رحيل الشيخ فراغا كبيرا، وأثرا بالغا في نفس الوارجلاني.

والقصيدة تقع في تسع وسبعين بيتا. حفظها لنا الدرجيني في طبقاته[3].

أما الحجازية فكانت عن رحلته إلى الحج، وقد أشرنا إليها في حديثنا عن رحلات أبي بعقوب. وهي أحسن من البائية في جودتها الفنية.

وتكمن أهمية القصيدتين في الجانب التاريخي أكثر منها في الجانب الأدبي. إذ إن الوارجلاني لم يكتب الشعر استجداء لذي سلطان قاهر، ولا استعطافا لذات جمال آسر. بل كتبه والدموع ملء جفونه وقد فجعه الموت بموت شيخه أول مرة، واختضار موج البحر أعز رفاقه في رحلة الحج آخر مرة.

وموقفه من الشعر موقف الإسلام الذي يمقت القول بلا عمل، ويولي الاهتمام للمعاني والتطبيق، لا للألفاظ الجوفاء. بينما أغلب الشعراء لا يَعْدُون دائرة القول "وأنهم يقولون ما لا يفعلون". ويوضح الوارجلاني رأيه في القضية بقوله: "ما أحسن الكلام وأحسن منه معناه، وما أحسن المعنى وأحسن منه استعماله، وما أحسن استعماله وأحسن منه ثوابه، وما أحسن ثوابه وأحسن منه رضى من عملت له..."[4].

---

1) – الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، صفحات460/461.
2) – الشماخي، سير المشايخ، طبعة حجرية.ص444.
3) – الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، صفحات462–469.
4) – الوارجلاني، الدليل والبرهان، ج3. ص29. طبعة حجرية.

عود على بدء

يخلص بنا الحديث بعد هذه الإطلالة التعريفية العجْلَى على نتاج أبي يعقوب أنه كان شاملا استوعب ثقافة عصره، وكان أصيلا اعتمد مصادر المعرفة الموثوقة من الكتاب والسنة. والتزم منهج القرآن القائم على الميزان العقلي[1]. إذ يرى الوارجلاني أن البرهان المنطقي هو رأس العلم، وغيره من العلوم فروعه. وأنه أصل علوم العقلاء[2]. »وبفائدة المنطق حاجّ الله المشركين في القرآن من أوله إلى آخره. وقرعهم ببراهينه وحججه. والأنبياء صلوات الله عليهم بالأثر، والأولياء على أسلوبهم«[3]. وقراءة آثار الوارجلاني تفرز لنا الملاحظات الآتية:

1- اعتماده المنهج العقلي المعتدل في التأويل، دون شطط. والالتزام بحدود دلالات اللغة في التفسير.

2- توظيفه علم الكلام لمجابهة تيارات الفكر المناهضة للإسلام، من أهل الملل الأخرى، والدفاع عن العقيدة الإسلامية.

3- استثماره علم التفسير وعلم الأصول ومناهجهما للرد على الفكر الباطني وآرائه الخطيرة على العقائد وعلى المجتمع الإسلامي.

4- استفادته من الرحلات، وموسوعيته في الاطلاع لتفسير آيات القرآن، بما يتفق ومقصد الشارع من جعله كتاب هداية للحيارى إلى نهج الرشاد، وسببا للفوز يوم المعاد.

---

1) – الوارجلاني، العدل والإنصاف. ج1، ص18. مرقون بحوزتي.
2) – الوارجلاني، الدليل والبرهان، ج2، ص111. طبعة حجرية.
3) – الوارجلاني، الدليل والبرهان، ج2، ص112. طبعة حجرية.